بصدور هذه الاطروحة التي نال بموجبها الأب سليم دكاش شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون باريس الأولى سنة ١٩٨٨ والتي تحمل كعنوان "قضية خلق العالم لدى أبي منصور الماتريدي وسياقها العقلاني والتاريخي" تغتني سلسلة الابحاث الصادرة عن معهد الآداب التابع لجامعة القديس يوسف بمجلد جديد يعرفنا على مؤلف ما يزال غير مطروق, وله أهميته الخاصة فهو من القلائل الذين يحاولون الخروج والتحرر من الثنائيات المتعارضة باشكالية تجمع وتوفق بين المواقف السائدة في عصره, وخاصة بين المعتزلة والآشاعرة, وما أحوجنا اليوم الى مثل هذا الفكر.

كما تساهم القراءة التي يقدمها لنا الأب سليم دكاش لكتاب التوحيد للماتيريدي نموذجا لما يمكن أن نسميه قراءة عصرية, تأولية للتراث تضعه ضمن سياقه التاريخي, قراءة لا تلغي التاريخ والزمن بل تحوّل المسافة الزمنية التي تفصلنا عن المؤلف الى ساحة للتأويل والتفسير كفعل ترجمة يترجم عصرا الى عصر, لأن التحدي الأكبر في قراءة التراث هو بكيفية جعل التراث معاصرا لنا وليس العكس.

وسوف أتوقف بمداخلتي عند مفوهمين يستعملهما الماتيريدي بصورة متواترة وهما المحنة والاختيار. ومن المعروف أن قضية الاختياركانت من القضايا الأولى التي شغلت علم الكلام وقسّمته الى مدارس متعارضة, بين مؤيد لها ومعارض, أي المعتزلة والآشاعرة.

يحاول الماتيريدي ابن القرن العاشر الميلادي والرابع الهجري ٣٣٣/٩٤٤ التوفيق بين حرية الاختيار عند الانسان ومسؤوليته عن أفعاله دون الحط من قدرة الله ووحدانيته.

من المعروف بأن المواقف المتعارضة للمعتزلة والاشاعرة عالجت العلاقة بين الله والانسان بصيغة النفي أي ما نقّره لله ننفيه عن الانسان والعكس صحيح. إن المعارك الفكرية التي خاضها الطرفين أحدهما ضد الآخر كانت معارك الغاء لفكر الآخر وصلت الى حد التصفية الجسدية. وهكذا تم القضاء على المعتزلة الذين كانوا السباقين في اضطهاد خصومهم وقتلهم. بينما تهدف المعارك الفكرية بجوهرها الى تمازج الاراء وتفاعلها كي تكون الحقيقة المنتصر الوحيد.

إن فكر الماتيريدي يحاول تحويل الثنائيات المتعارضة لكل من المعتزلة والاشاعرة الى اشكالية تجمع وتربط, فهو يحاول الجمع بين العقل والوحي, بين الانسان والله, بين الاختيار وما يترتب عنه من مسؤولية الانسان وقدرة الله.

ينقل الماتيريدي اشكالية الاختيار من مستوى القدرة والاستطاعة بالمعنى الفيزيائي, الجسدي للكلمة, وهذا ما كان مأزق المعتزلة والاشاعرة الى المستوى

الأخلاقي, أي الى التمييز الذي يقوم به العقل بين الخير والشر, ومن هنا أهمية الامتحان والمحنة المرافقة لقضية الاختيار. وهذا ما تبزره بصورة معمقة أطروحة الأب دكاش.

إن الانسان الممتحن هو الانسان كفاعل أخلاقي, لأن كل فعل اختيار هو امتحان, ومن هذا الامتحان يستمد الانسان سموه وقيمته الأخلاقية. الامتحان هو فعل تنقية للدوافع والنوايا, يقود في نهاية المطاف الى المعرفة الصحيحة, ويمكن أن نقارن ذلك مع مفهوم التجربة في الكتاب المقدس, حيث يقول بأن الله يجرب محبيه بمعنى يمتحنهم والمحنة تساعد على التطهير وعلى التثبت في الايمان مثل امتحان الله لابراهيم (تك ٢٢/١).

ولكن مفهوم المحنة يشغل حيزا واسعا في فكر الماتيريدي ويربطه بمفاهيم أخرى:

- المحنة والخلق

فهو يقول: خُلق البشر للمحنة, والمحنة تعني هنا المسؤولية, أي كما يقول اللاهوت الحديث, بفعل الخلق يُعطى الانسان لذاته, وهذا ما يؤسس لمسؤوليته وما ينتج عنها من ثواب وعقاب. كما أعطي العقل كي يميز بين المخلوقات ما هو مفيد له وما هو مؤذي والتمييز يعني هنا الامتحان :"خلق البشر وجعلهم أهل محنة وأنبت لهم الأرض بما أنزل من ماء السماء أغذية لهم وأدوية ثم أنبت منها الأدواء والسموم القاتلة ومنح في عقولهم الامتحان بأنفسهم ليعرفوا المؤذي من المغذي"

ولكن هذا الامتحان هو مجال للتعلم والاكتشاف الذي غايته الأولى معرفة خالقه مصدر النعم والاحسان وبالتالي شكره عليها:"فلزمهم به (أي العقل) معرفة المنعم ليعلموا من يستحق المحبة ويستوجب الشكر"

ولكن الامتحان هو الصراع الذي يدور في قلب الانسان حول كيفية استعمال المخلوقات : هل يخضع لفتنة الاشياء الآنية الحسية مطلقا لشهواته العنان أم يسعى لخير أسمى لا يدركه الاّ العقل :"إذ العقل يُري صاحبه على حقيقة ما عليه الأشياء والطبع لا يوضح ذلك. أن طبع الجوهر لا تبصر به ولا يمثل غير الحاضر, والعقل يدرك به ما حضر وغاب, وبه يحضر على الطبع ما غاب, حتى يصير له كالشاهد مما يكرهه ويتلذذ به, عنده تسهل المحنة وتخف مؤن الذي يكرهه الطبع"(٢٢٤). المحنة هي صراع الانسان مع القوى الطبيعية الموجودة فيه من غرائز وشهوات وبين قوى العقل ويختار ما اختاره العقل.إن

الشهوات تقود الانسان الى السلوك الغرائزي المباشر, الفوري, بينما العقل يدرك ما هو غير محسوس, والمحنة هي بالتخلي عن الملذات العابرة بغية خير اسمى.

الامتحان هو إذن الصراع بين الاقرار بالخالق وحكمته والنزعة الى شهوات الطبع والخضوع لفتنة الاشياء. ولكن ما ينير العقل ويوجهه هو
الامر والنهي التي تقوم به الشرائع, وما يقابلهما من ثواب وعقاب. لهذا فإن الامر والنفي لا يمكن فصلهما عن الامتحان, لأن الاختيار متروك للارادة البشرية والحرية الانسانية, هذه المسؤولية هي امتحان. وهنا يجمع الماتيريدي بين دور العقل في تحديد طبيعية الأفعال حسنة أم قبيحة عند المعتزلة ودور الشريعة عند الاشاعرة. العقل والشريعة عنده يقودان نحو الأصلح.

فدور العقل هو القيام بالنظر والتمييز وفي هذا امتحانه ولكن عليه الخضوع أيضا للوحي. فبعد أن يقوم العقل بالفحص والتمييز عليه أن يعترف بنهاية المطاف بعجزه, ويخضع الى وحي الله. إن الامتحان لا يكتوي به الا الانسان المتمتع بالاختيار والحرية ومن هنا يستمد كرامته الانسانية.

وخلاصة القول إن قراءة الأب سليم دكاش للماتيريدي تقيم علاقة سليمة مع التراث, فهي لا تشدنا الى ماض كنموذج يقتدى, إنما تؤسس لثقافة عربية–اسلامية معاصرة يشكل التراث إحدى مكوناتها, هنالك فارق كبير بين التراث السجن والتراث الذي يمد بالديناميكية الدافعة نحو المستقبل. ويمكن أن الخص هذه الديناميكية على النحة التالي,

إن ثقافتنا تحتاج أكثر ما تحتاج اليه هو التحرر من الثنائيات المتعارضة التي تقسم العالم بين أبيض واسود, بين الخير والشر, والتي تخيرنا بين هذا وذاك, هذه الثنائية التي تغلق الافق وتشل التفكير وتبعده عن ديناميكية الحياة. فالاشكالية ليست الاختيار بين العقل والوحي, بين الجبر والاختيار...بين الانسان والله كما فعل المعتزلة والاشاعرة بل في كيفية الربط بينهما, كما يبين لنا الماتيريدي, فهو يتبنى فكر المعتزلة باعمال العقل دون أن يلغي دور الوحي, إنه يؤكد على فعل الخلق الذي يعود الى الخالق وحده وهذا ما يبرهن على الوحدانية دون أن يلغي دور الانسان ومسؤوليته من هنا حديثه المستمر على المحنة والامتحان, إن الانسان في محنة لأنه أمام اختيار, محنة عذاب الأسئلة, إنه في محنة لأنه ساحة للصراع بين قوى الغرائز والشهوة ونور العقل الذي يقوده الى الخير, صراع بين لذة اللحظة الآنية وبين الخير الأسمى.

إن الفكر لا يتقدم بالغاء الفكر الآخر وطمس معالمه والحلول مكانه بل باعتباره ندا يحفّزنا ويمنعنا من الانغلاق على ذواتنا, الآخر هو الرفيق الذي لا

غنى عنه على طريق الحقيقة, لأن الحقيقية بجوهرها لا تتجلى الاّ لمن يعرف كيف يقيم علاقة تربط وتجمع بين الحقائق, وتحتجب عند كل نفي أو الغاء للآخر.

نجدد شكرنا وتقديرنا للجهود الذي بذلها الآب سليم دكاش لأنه يقدم لنا عملا لا يستمد قيمته من الماضي التليد, بل لكونه يشكل نموذجا للتفاعل مع التراث واستقرائه انطلاقا من اسئلة الحاضر, إنه يعتمد على العملية التأولية التي تحمل هموم الانسان المعاصر واسئلته بحيث يجعل من التراث معاصرا لنا بدل أن يشدنا هذا الأخير نحو الماضي ليجعلنا معاصرين له.
وفي الختام لنا أمنية أن يبصر هذا المؤلف النور بلغة الضاد.